العرب
الثلاثاء 2021/08/31
السنة 44 العدد 12165

إيران لن تتغير، لا بالعقوبات ولا بالإغراءات

علي الصراف
كاتب عراقي

ماذا تتوقع من جار مشاكس يعرف أنك لن تحاربه؟

المزيد من المشاكسة طبعا. وهذا ما يتعين توقعه من إيران إبراهيم رئيسي، كما بقينا نتوقعه من أول يوم وطئ فيه المشروع الخميني أرض تلك البلاد. والسبب لا يتوقف على أن طبائع العدوان هي الغالبة دائما، وليس لأن إيران لا تملك غيرها، ولكن لأنها لا تتوقع الكثير مما عداها.

إيران، لو شاءت أن تتخلى عن هيمنتها على العراق فإنها سوف تخسر أكثر من 15 مليار دولار سنويا، من "التبادل التجاري" الجائر. ذلك لأنه "تبادل" من جانب واحد.

في كلمته أمام مؤتمر بغداد للتعاون والشراكة مع دول الجوار، قال وزير الخارجية الجديد حسين أمير عبداللهيان إن إيران جنت من العلاقة مع "العراق الجديد" 300 مليار دولار. و"العراق الجديد" ولد قبل 18 عاما. وعندما لاحظ عبداللهيان علامات الصدمة على الوجوه، عاد فطلب أن يقدم تصحيحا، ليقول إن المبلغ هو 13 مليار دولار، فكان كمن أراد أن يُكحلها فعماها. لأن حكومته السابقة قالت في الحادي والعشرين من يوليو الماضي إن "التبادل التجاري" بين العراق وإيران بلغ 15.5 مليار دولار في العام 2020 وحده. والسجلات المعلنة معلنة في نهاية المطاف، ولا حاجة للكذب بشأنها.

والتبادل التجاري هو أن يقدم العراق الأموال، بينما تقدم إيران كل أنواع البضائع، بما فيها الأدوية الفاسدة. دعك عن كل أعمال النهب الأخرى التي تذهب "عائداتها" إلى إيران لتمول ماكينة ميليشياتها الخاصة.

ولو شاءت إيران أن تتخلى عن حربها في اليمن، فإنها ستخسر طموحات الهيمنة على مدخل البحر الأحمر. كما ستخسر ما تعتبره حرب استنزاف ضد السعودية وشركائها الإقليميين.

صحيح أن الملايين من اليمنيين يتضورون جوعا، ويهلكون مرضا وفقرا، بمن فيهم الذين يعيشون تحت سطوة الحوثي. ولكن من قال إن حياة البشر شيء يهم رعاة المشروع التوسعي الإيراني؟

أيديولوجيا، فإن فقر البشر وموتهم يتوافق تماما مع نظرية انتظار عودة المهدي المنتظر. ذلك أن عودة هذا "المنتظر" تتطلب، هي بحد ذاتها، ظلما وجورا. ويشعر كل ميليشياوي إيران، في كل مكان، أن هذا تحديدا هو الهدف. فبينما هم يستمتعون بما يقومون بنهبه، فإنهم يؤدون وظيفة دينية مقدسة أيضا. والجريمة التي ينظر إليها الآخرون على أنها جريمة، لا تحرك شعرة في ذقن فالح الفياض ولا عبدالملك الحوثي، ولا حسن نصرالله، ولا أي أحد ممن لف لفهم.

هذا هو الطموح الأيديولوجي من وراء حروب إيران وأعمال ميليشياتها في المنطقة. فإذا ما شئت أن تضع لذلك حدا، فإن إيران الولي الفقيه سوف تشعر أنها خسرت كل شيء.

انظر إلى الخراب في لبنان، وسراه متوافقا تماما مع هذا التطلع. والخوف من انهيار البلاد، هو مجرد خوف لمن يرون الكارثة الإنسانية التي يواجهها اللبنانيون، ويشعرون بالبأساء أنهم يرون بلدا كان ذات يوم "سويسرا الشرق" يتحول إلى كيان عاجز ولا يملك القدرة على إنتاج الكهرباء ولا يجد شعبه حتى الخبز الكافي.

ولكن الانهيار هو غاية الأرب، فطنة كان أو أمنية، بالنسبة إلى تلك الأيديولوجيا.

وبرغم كل الضغوط التي يعانيها الرئيس السوري بشار الأسد، وبرغم كل العروض التي تُقدم له، من أجل التخلص من النفوذ الميليشياوي الإيراني في بلاده، فإنه يعرف تماما أن بلاده بيعت لإيران، وأنها ستقتله، وتعلق جثته في ساحة المرجة لو أنه تطاول على ما صارت تمتلكه من عقارات وأراض ومصالح.

هذه البلدان ليست سوقا للحرس الثوري فحسب. إنها سوق لـ"التبادل التجاري" أيضا من ذلك النوع الذي سمح لسلطة الولي الفقيه، برغم كل العقوبات ضدها، أن تصمد وتواصل تدخلاتها وتتغطرس.

الآن، كل الذين يريدون أن تتخلى إيران عن هذه "التجارة"، يتعين أن يصحوا من النوم، ويكفوا عن أنفسهم كوابيسه.

فبعد كل ذلك، يعرف هذا الجار المشاكس أنك لن تحاربه. فماذا تتوقع منه أن يفعل؟

الحرب لا تبدو خيارا واقعيا.

والسؤال الكبير، هو كيف نخرج من هذه الورطة؟

الجواب موجود في إيران نفسها. بقاء العقوبات مجرد وجه واحد من وجوه المواجهة مع المشروع التخريبي. أما الوجه الآخر فهو دعم حركات المقاومة ضد النظام.

ماذا تريد من شعب ظل ينتفض ضد سلطته منذ العام 2009، بل من قبل ذلك أيضا؟ ماذا تريد من شعب ظل يقدم الآلاف من الشهداء بين المتظاهرين السلميين الذين ظلوا يندون بسلطة الولي الفقيه ويطالبون برحيله؟

هذا الشعب يجب ألا يبقى وحيدا. وقوى المعارضة فيه، وفي مقدمتها مجاهدي خلق، يجب أن تحظى بكل دعم ممكن، من أجل المساعدة للإطاحة بهذا النظام.

اليوم يقف على رأس البلاد متهم بقتل عشرات الآلاف من المعتقلين. وهو لن يتورع عن قتل غيرهم. ووليه الفقيه إنما جاء به رئيسا لأنه يتوقع منه ألا يتردد في ارتكاب أي مجزرة. إلا أن ذلك ليس نهاية المطاف. لا يجب أن يكون.

نظام الولي الفقيه معزول بكل ما يمكن للكلمة من معنى. ليس لأنه أفقر شعبه ودمر مقومات حياته، وليس لأنه خاض به حروبا عبثية، وليس لأنه يتشفى بموته بوباء كورونا، بل لأن هذا الشعب يعرف تماما طبيعته كنظام أيديولوجي فاسد، لا يمكنه أن يُورث الذين يقعون تحت سطوته إلا الظلم والجور؛ إلا الفقر والحرمان، إلا الموت بأي ذريعة وسبب.

لا حاجة لمخادعات النفس. لا العقوبات، ولا التخلي عنها، يمكن أن تغير من طبائع العدوان. ولا حتى الإغراءات بأي شيء قد يأتي من الخارج، على شكل استثمارات أو موارد بديلة، تعوض عن الحاجة إلى أعمال التخريب والنهب.

كل هذا لا ينفع.

العلاج الوحيد، هو الكي. وأبلغ الكي هو ما يأتي من داخل إيران نفسها، من شعب يتعين أن يحصل على المساعدة لكي يقاوم.

ووسائل الدعم كثيرة. ولكن الأوهام هي آخر ما نحتاجه. إلا إذا شئت أن تنتظر المهدي المنتظر أنت أيضا كما ينتظره حسن نصرالله وعبدالملك الحوثي وفالح الفياض على جثة بلاده المسجاة أمامه.

من قاد الغنوشي إلى نفق الخسارة؟

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

لا يكفي لراشد الغنوشي أن يتحدث عن أخطاء ارتكبتها حركة النهضة خلال السنوات الماضية، عليه أن يكون أكثر وضوحا ويعترف بأنه لم يكن مصيبا في أغلب حساباته الداخلية والخارجية، وأنه يواجه عزلة قاتلة في معبده الأزرق، بعد أن انقطعت به السبل منذ الخامس والعشرين من يوليو الماضي عندما أعلن الرئيس قيس سعيد عن تدابيره الاستثنائية وفق المادة 80 من الدستور.

قد تكون أكبر أخطاء الغنوشي تقدمه لعضوية البرلمان ثم لرئاسته. ربما لم يصدق أنه شخصية منبوذة من عموم الشعب وأن زعامته لحركته الإخوانية لا تجعل منه زعيما للبلاد. وأن هناك من سيقفون ضده بقوة لأسباب سياسية وأيديولوجية وثقافية، ومن سينظرون إلى رئاسته للبرلمان كنوع من الاستفزاز غير قابل للمهادنة إزاءه. الأمر لا يتعلق فقط بقوى النظام السابق أو باليسار الراديكالي وإنما بالأغلبية الساحقة من التونسيين التي تتعامل مع الإسلاميين بمنطق الشك والريبة، وتنظر إليهم كحالة ثقافية وافدة، وكجزء من مشروع عابر للحدود.

لم يكن من المصادفة أن يتبوأ الغنوشي المركز الأول في الشخصيات التي لا يثق فيها التونسيون، ومع ذلك أصرّ على أن يرأس البرلمان وأن يصنع من منصبه رئاسة ثالثة تنافس رئاستي الجمهورية والحكومة، رغم أن رئاسة البرلمان ليست سوى وظيفة داخلية مرتبطة أساسا بالتوازنات تحت قبة المجلس، ودورها إدارة المكتب والجلسات، أما أن تتحول إلى مركز تحديد لمسارات العلاقات الخارجية والمصالح السيادية للدولة ولتحديد التحالفات الإقليمية والدولية ضمن خارطة المحاور، فإن الأمر يصبح تحديا مفضوحا لصلاحيات الرئيس المنتخب مباشرة من الشعب، وهو ما أكده الرئيس سعيد في مناسبات عدة.

بقليل من الانتباه لحركات وسكنات الغنوشي خلال توليه رئاسة مجلس نواب الشعب، يمكن للمراقب أن يدرك أن الرجل يتطلع لرئاسة الدولة لا لرئاسة البرلمان، وأنه يبحث عن لحظة فارقة يصل من خلالها إلى منصة الرئاسة في قصر قرطاج، وأن هناك من كانوا يسعون إلى إقناعه بأن ذلك قدره، وأن عليه أن يستعد ليختتم مسيرة حياته بذلك المنصب كما فعل صديقه "اللدود" الباجي قائد السبسي، وقد فعلوا كل شيء من ذلك تهيئته لذلك فأحاطوه بالمستشارين والخبراء في مجالات البروتوكول والإعلام والعلاقات العامة، واشتغلوا على صورته في الداخل والخارج كعنوان لما سموه الإسلام الديمقراطي.

كان يجري ذلك في الوقت الذي كان فيه هناك صراع قائم داخل حركة النهضة، فالغنوشي تحول إلى حاكم بأمره في الحركة، وكزعيم للأسرة الحاكمة، وهو من يمتلك مفاتيح الخزينة، ومن يستحوذ على ملف العلاقات الخارجية. عندما تم تعيينه رئيسا لمكتب العلاقات الخارجية اكتشف القيادي التاريخي في الحركة عبدالفتاح مورو أنه كان آخر من يعلم عن نشاطه وبرامج ذلك المكتب الذي يتولى إدارته الفعلية رفيق عبدالسلام صهر الغنوشي المقرب. في يناير 2021 فشل عبدالسلام في نيل ثقة أعضاء مجلس الشورى خلال انتخابهم للمكتب السياسي لكن الغنوشي تجاوز ذلك واستفاد من امتيازاته كرئيس للحركة ليعين عبدالسلام من جديد مسؤولا عن العلاقات الخارجية. وفي اللقاءات الخارجية عادة ما يكون الغنوشي مرفقا بفريقه الأسري المقرب حتى في الترجمة الفورية.

خلال السنوات الماضية، ظهر بشكل سافر جناح تزيين الأخطاء للغنوشي، وهو من بعض القيادات التي اختارت التقرب منه لخدمة مصالحها الشخصية على حساب الحركة، وكانت ترد على كل انتقاد يوجه إليه، بأنه غير ناضج سياسيا أو حاقد أو مرتزق وعميل لهذا البلد أو ذاك، ولاسيما في علاقة بسياسات المحاور الإقليمية التي انجذبت إليها النهضة وتحولت إلى جزء منها، وكانت تراهن عليها في تحصين موقعها من منطلق قناعة لدى رئيسها بأن الحلفاء الخارجيين لن يتخلوا عنه، ولا عن شعاراته التي يرفعها وهو يقدم نفسه كرمز للاعتدال والمصالحة. لم يكن الغنوشي قارئا جيدا للتحولات السياسية في المنطقة، فلطالما راهن على عودة حكم الإخوان في مصر، وعلى سقوط نظام الأسد في سوريا، وعلى استمرار المواجهة الخليجية، وعلى موجة جديدة من الربيع العربي، ولكن كل تلك الرهانات ذهبت هباء منثورا، وآخر رهاناته كان على إمكانية أن يضغط المجتمع الدولي على الرئيس سعيد ليرفع التجميد عن البرلمان، وهو ما لم يتحقق.

كان هناك من يريد الترويج لشخصية الزعيم السياسي المحنك والبراغماتي غير القابل للهزيمة، فالغنوشي دخل في مواجهات مع نظام بورقيبة وبن علي، وبدا في العام 2011 وكأنه انتصر عليهما، وعاد لينتقم من التاريخ. فرحب به مناصروه في مطار تونس قرطاج بأنشودة "أقبل البدر علينا" بعد وصول الحركة إلى الحكم، تحول إلى الرقم الصعب في السياسة التونسية.

الغنوشي فشل في التحول إلى شخصية سياسية بملامح تونسية لم ينفعه تغيير موقفه من بورقيبة ولا ارتداء ربطات العنق ولا استقباله للفنانات في بيته العامر واستماعه إلى أغانيهن العاطفية

وعندما انتفض الشارع ضد الإسلام السياسي بعد اغتيال شكري بلعيد ومحمد البراهمي في العام 2013 سافر خصيصا إلى باريس ليجتمع مع زعيم حركة نداء تونس قائد السبسي ليعقد معه صفقة تقاسم السلطة لاحقا، رغم أنه كان يتهمه بأنه أخطر من التيارات السلفية الجهادية. عندما فاز نداء تونس في انتخابات 2014 استطاعت النهضة أن تخترقه من الداخل وأن تصيبه بالتصدع والانشقاقات حتى انهار قبل أن ينهي عهدته في الحكم، وبعد انتخابات 2019 اتجه الغنوشي ليتحالف مع حزب "قلب تونس" الذي كان يتهمه بأنه حزب فاسد، وكان يعد أنصاره بأنه لن يتحالف معه أبدا.

تلك البراغماتية التي كان يشيد بها المقربون من الغنوشي، كان الشارع التونسي يرى فيها انتهازية مقيتة.

في الأثناء كانت هناك صورة تتشكل عن حزب يدعي أن مرجعيته الإسلام لكن تصرفاته تصب في خانة ممارسة الفساد والتحالف مع رموزه أو التستر عليهم واستغلال النفوذ والعبث بمصالح الدولة. لقد أدى وصول النهضة إلى السيطرة على المشهد السياسي من خلال البرلمان والحكومة والحكم المحلي إلى انهيار تام للمنظومة الأخلاقية التي كانت تزعم الانطلاق منها في ممارسة عملها السياسي. قد يتفاجأ الغنوشي نفسه بموقف الشارع منه ومن حركته، هو اليوم في نظر التونسيين يتحمل كل المسؤوليات عن الويلات والخيبات والانكسارات والأزمات المالية والاقتصادية والصحية، عن شح الزيت والسكر والسميد والمضاربة في أسعار كل شيء بدءا من مواد البناء ووصولا إلى العلف الحيواني.

لم ينجح الغنوشي في أن يتحول إلى شخصية سياسية بملامح تونسية بحتة ككل زعماء البلاد السابقين، لم ينفعه تغيير موقفه من بورقيبة من التكفير إلى التقدير، ولا ارتداء ربطات العنق متجاوزا فتوى الخميني حولها، ولا استقباله للفنانات في بيته العامر واستماعه إلى أغانيهن العاطفية، ولا تعاطفه المعلن مع الفقراء والمساكين، ولا تظاهره بالديمقراطية والقبول بالرأي المخالف مهما كان قاسيا تحت قبة البرلمان، وكل محاولات التلميع لم تفده في شيء. في داخل حركة النهضة تم اتهامه بالدكتاتورية في اتخاذ القرار والرغبة في البقاء على رأسها، وفي البرلمان أفقدته المعارضة حالة الهيبة التي كان يريد أن يحف بها نفسه، وفي الشارع كان التونسيون في كل مناسبة يرفعون شعارات ضده.

عندما أقر الرئيس سعيد جملة التدابير الاستثنائية، رحب بها التونسيون أساسا لأنها أطاحت بالغنوشي من دائرة الحكم، وهذا ما فسره المراقبون وعدد من قيادات النهضة ممن اعترفوا بأن الأخطاء كثيرة، وبأن الغنوشي والمحسوبين عليهم يتحملون المسؤولية كاملة عما حدث. كانت هناك رسالة من إخوان تونس بأن زعيمهم على استعداد تام للتخلي عن رئاسة البرلمان، وبأنه كذلك مستعد لمغادرة منصب رئاسة الحركة. الموضوع ليس طلبا من عامة التونسيين فقط، وإنما كذلك من الجانب الأكبر من النهضويين الذين أدركوا أن قيادتهم جرتهم إلى نفق مظلم بتصرفات عبثية يقف وراءها الغنوشي ولاسيما بعد أن سعى إلى جعل النهضة تنظيما على مقاس تطلعاته وأطماع الباحثين عن مصالحهم الشخصية والفئوية.